(٨٥)

الشَّافِي ﷻ

جاء في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ عاد أعرابيًّا مريضًا يتلوى من شدة الحمى؛ فقال له -مواسيًا ومشجعًا-: «طَهُورٌ».

فقال الأعرابي: بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، توره القبور!

قال: «فَنَعَمْ إِذًا!».

شفاء الإنسان أو بقاؤه على مرضه -غالبًا- ينبع من نفسه وحده، فإذا ساورتنا أفكار سعيدة كنا سعداء، وإذا تملكتنا أفكار الشفاء والتفاؤل وحسن الظن بالله غدونا برآء بإذن الله، وإذا تغلبت علينا هواجس السقم والمرض فالأغلب أن نبيت مرضى سقماء.

وربُّنا ﷻ فتح باب الأمل لكل مريض، قال ﷻ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن أسمائه الحسنى: (الشافي)، فتقرب إلى الله بهذا الاسم؛ حتى تقرب من مرادك، وتنال حاجتك.

كان النبي ﷺ إذا أتى مريضًا أو أتي به إليه قال: «أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ! اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا» [أخرجه البخاري ومسلم].

والشفاء في اللغة هو: البرء من المرض.

فربنا سبحانه وتعالى الذي يرفع البأس والعلل، ويشفي العليل بالأسباب والأمل، فقد يبرأ المريض مع انعدام الدواء، وقد يزول الداء بلزوم الدواء، وتترتب عليه أسباب الشفاء، وكلاهما بالنظر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى سواء.

وربنا سبحانه وتعالى كما يشفي الأبدان من أمراضها؛ كذلك يَشْفِي القلوب من أسقامها، والصدور من ضيقها، والنفوس من عللها، فالله عز وجل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧].

وهو سبحانه وتعالى يشفي من يشاء، ويطوي علم الشفاء عن الأطباء، إذا لم يُقدِّر الشفاء.

وهو سبحانه وتعالى وحده المتفرد بالشفاء لا شريك له؛ فلا شفاء إلا شفاؤه؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء:٨٠]، وكما قال ﷺ: «...لاَ شَافِيَ إِلاَّ أَنْتَ» [أخرجه البخاري].

ومن كرم الله الشافي: أنه لَمْ ينزل داءً إلا أنزل له دواءً، صح عنه عليه السلام أنه قال: «يَا عِبَادَ اللهِ تَدَاوَوْا! فَإِنَّ اللهَ عز وجل لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ

وَاحِدٍ: الهَرَمُ»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

❐ ملاذك..

ينزل بالمريض الداء، وتغلق أبواب الشفاء في وجهه، وتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويشتد الكرب، ولا يجد في المخلوقين ملجأً ولا ملاذًا، وحاله يقول:

لَقَدْ ضَعْضَعَتْنِي، وَهِيَ سِرٌّ، وَلَمْ يَكُنْ
يُضَعْضِعُنِي صَرْفُ الزَّمَانِ إِذَا عَدَا
إِذَا مَا أَنَا أَسْنَدْتُ رَأْسِي إِلَى يَدِيْ
رَمَتْنِي مِنْهَا بِالَّذِي يُوْهِنُ اليَدَا
إِذَا اللَّيْلُ أَعْيَاهُ مُسَاجَلَةُ الضُّحَى
تَمَنَّى لَوْ أَنَّ الصُّبْحَ أَصْبَحَ أَسْوَدَا

وهنا؛ بداعي الفطرة في النفوس يلوذ المريض بالله، وينطرح بين يديه ﷻ، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[النحل:٥٣]، وينادي المؤمن باسم الشافي: يا شاف اشفني.. يا الله اشفني!

وكذلك غير المؤمن ينطرح عند بابه يرجو منه الشفاء؛ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[الزمر:٤٩].

وبعد إلحاح وصبر .. يأتي الفرج، ويأذن الشافي ﷻ بالشفاء، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢].

عطاؤه ممنوح، وكرمه عظيم، وجوده كبير؛ فإذا الحاجة قضيت، والدعوات قبلت، والرحمة نزلت، والمحنة أزيلت، والشفاء دب.

وَكَمْ مِنْ مَرِيضٍ نَعَاهُ الطَّبِيبُ إِلَى نَفْسِهِ وَتَوَلَّى كَئِيبَا
فَمَاتَ الطَّبِيبُ وَعَاشَ المَرِيضُ فَأَضْحَى إِلَى النَّاسِ يَنْعَى الطَّبِيبَا

قال ابن القيم: "الله ﷻ لا يبتلي عبده ليهلكه، وإنما يبتليه ليمتحن صبره وعبوديته؛ فإن لله ﷻ على العبد عبودية الضراء".

دأب الصالحين..

والفرق بين المؤمن وغيره: أن المؤمن يعلم أن زمام العالم بيد الله ﷻ، وأنه هو الشافي، وهو أرحم الراحمين، وأن المرض ما أرسل إلا لخير علمه الله الرحيم؛ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[البقرة: ٢١٦]، فمهما اضطربت الأحداث وتقلبت الأحوال؛ فلن تبت فيها إلا المشيئة العليا، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾[يوسف:٢١]، فتجد المؤمن المريض راضيًا مسلمًا محتسبًا بما أنزل عليه من الداء.

والمؤمن يعلم: "أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه"؛ لقوله ﷻ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[التوبة: ٥١]، ولقوله ﷺ: «..وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ

حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ»[حديث صحيح. رواه أبو داود].

مرَّ علي بن أبي طالب بعدي بن حاتم ﷺ؛ فرآه حزينًا كئيبًا؛ فقال له: "يا عدي! ما لي أراك كئيبًا حزينًا؟ قال: وما يمنعني وقد قتل أبنائي وفقئت عيني؟ فقال علي ﷺ: يا عدي! إنه من رضي بقضاء الله جرى عليه، وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه، وحبط عمله".

قال العلماء: بقدر حاجة الإنسان إلى الله، وانطراحه بين يديه، ولجوئه إليه؛ تكون الإجابة، ويأتي الفرج، ويستجاب الدعاء.

وما منا إلا وله تجربة مع المرض، وكيف أن المرض كشف ضعفنا، وأنه لا حول لنا ولا قوة إلا به ﷻ، فلما كشف عنا وزال ما بنا من داء؛ صار حالنا كما قال الشاعر:

نَحْنُ نَدْعُوْ الإِلَهَ فِي كُلِّ كَرْبٍ ... ثُمَّ نَنْسَاهُ عِنْدَ كَشْفِ الكُرُوْبِ

كَيْفَ نَرْجُوْ إِجَابَةً لِدُعَاءٍ ... قَدْ سَدَدْنَا طَرِيقَهَا بِالذُّنُوْبِ

فشأننا مع الله ﷻ عجيب!!

❐ لا تحزن!

إذا بُليت بالمرض فاعلم: أن الله هو الشافِي، ولا يعجزه شيء، فإن ظننت أن مرضك ليس له شفاء؛ فقد أسأت الظن بالله! فقط أقبل عليه بحسن

الظن وصدق الالتجاء، واصبر محتسبًا وتصدق، وألح عليه في الدعاء: يا شاف اشفني! فهو الحق، وقوله الحق، وهو على كل شيء قدير، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]؟

وجاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[حديث صحيح. رواه الترمذي]، والله ﷻ قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢].

وعندما تكون على هذه الحال؛ فقد تكرم عليك مولاك بعظيم الأجر والثواب، قال ﷺ: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا عَنْهُ؛ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا»[أخرجه البخاري -وهذا لفظه-، ومسلم].

قال ابن تيمية رحمه الله: "الله عنده من المنازل العالية في دار كرامته: ما لا ينالها إلا أهل البلاء".

ثم تعز بأهل البلاء؛ ففي كل دار نائحة، وعلى كل خد دمع، وفي كل واد بنو سعد.

كم من المصائب، وكم من الصابرين؟!

فلست وحدك المصاب، بل مصابك أنت بالنسبة لغيرك قليل.

كم من مريض على سريره من أعوام؟! يتقلب ذات اليمين وذات الشمال، يئن من الألم، ويصيح من السقم.

وتذكر أن هذه الحياة سجن المؤمن، ودار للأحزان والنكبات، فيها

تصبح القصور حافلةً بأهلها، وتمسي خاويةً على عروشها، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾[البلد:٤].

اقبل دنياك كما هي، وطوع نفسك لمعايشتها؛ فإنها جبلت على كدر، والكمال ليس من شأنها.

ولولا مرارة المرض ما عرفت نعمة الصحة.

ولك في أيوب عليه السلام أسوة حسنة..

والمؤمن يسأل الله العافية على الدوام، كان عبدالله التيمي رحمه الله يقول: "أكثروا من سؤال الله العافية؛ فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى لا يأمن من البلاء.

وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم".

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "من أعظم علاجات المرض: فعل الخير، والإحسان، والذكر، والابتهال إلى الله، والتوبة".

قُلْ لِلطَّبِيبِ تَخَطَّفَتْهُ يَدُ الرَّدَى: مَنْ يَا طَبِيبُ بِطِبِّهِ أَرْدَاكَا
قُلْ لِلمَرِيضِ شُفِيَ وَعُوْفِيَ بَعْدَمَا عَجَزَتْ فُنُوْنُ الطِّبِّ: مَنْ عَافَاكَا

إنه الرحيم الشافي المعافي، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾[الشعراء:٨٠].

اللهم يا شافي! اشفنا واشف جميع مرضى المسلمين؛ يا رب العالمين!